فيصل دراج

دراسة في رواية سحر خليفة: قول الرواية وأقوال الواقع

في تباين الشتات نقرأ تباين التجربة، ونتقرّى حال الفلسطيني في اختلاف الأزمنة والأمكنة، وندخل في تناثر شعبه وترامي التجربة. وإذا ابتعدنا عن دلالة المكان، والمكان سمة، وولجنا حقل الزمن، والزمن تاريخ، فإنا نقابل الشتات والتباين في وحدة المسار، والمسار غني بتجربة الفلسطيني في صقيع المنفى، وفي أسى الاحتلال الأول، وحزن الاحتلال الثاني. وعندما ننطق بالتجربة، فإننا نقرأ فيه التاريخ، ونرى الفلسطيني في تحوّلاته، التي تتوحّد الدلالة فيها رغم اختلاف الأمكنة والأزمنة. والتاريخ لا يموت، تصونه الكتابة، وتحفظه السطور التي ينتجها. تتداخل الكتابة في التاريخ ثم تتوارى في سطوره، حيث يصبح تاريخ الكتابة علاقة في التاريخ العام. والكتابة الفلسطينية لا تهجر التاريخ، ولا تقول غير قوله، إنها تستوري فيه وتستظهر، تبدأ منه وتعود إليه. وفي هذا التاريخ الذي تستوري فيه الكلمات التي أنتجها، نقرأ «غسان» وعثار المنفى، و«إميل» وحزن الوطن المصادر. وتجيء الآن «سحر»، لتكمل، مع أصوات غيرها، مسار الكتابة الفلسطينية التي خبرت التاريخ وأخبرت عنه.

و«سحر»، كما صاحب «المتشائل» وكاتب «رجال تحت الشمس»، تنطلق من واقع حقيقي معاش، ومن تجربة جماعية تؤثر في التاريخ وتعيد صياغتها من جديد؛ وفي رحابة الواقع وضيقه، تطلق صاحبة «الصبّار» حركة الشعب الفلسطيني، في ركودها الموهوم، وفي نبضها الملموس، فنبصر السطح والقاع، ونرصد التجربة ورماد التجربة، ونحتضن أشواقاً ننزع إليها، ونقترب منها ونتماثل، ثم نتوحد في السؤال وفي المسار.

تُسائل سحر زمانها الفلسطيني، تقبض على معناه، وتكتب عن جديد القول في جديد الحركة التاريخية وعسف الاحتلال، وتقول: إن هوية الفلسطيني في زمن اغتصاب الأرض والكيان هي هوية الصراع، هوية لا تتحدّد بـ«النسب التاريخي» وشبق الكلمات والأحلام الذاهلة، لأنها تندثر في الذهول، وتصون نفسها في صحو متجدد، يعرف أن الهوية الوطنية